قصة قصيرة

العرس

محمد علوان

. . . لا أعرف كيف جاءت بلون الغراب، ذلك الوهج الفضي الذي يلّون جناحه، ملعون هذا الغراب لا يفزع من حيوان كاسر قدر فزعه من الإنسان، والإنسان إن رأى الغراب فذلك يوم النحس. . ليت لي أن أعرف أيّ النبوءتين أصدق من الأخرى. . . .

● عادتها في كلّ يوم ثلاثاء، تزدان المدينة بالنساء القرويات، لكنها في هذا اليوم كانت كئيبة على غير ما عهدناها. . ذلك التل الذي يعلو السوق لا يزال يعكس صبيحة كل يوم ذلك الوهج عندما تكون الشمس سلطانة للنهار، لم نكن نعرف في تلك الأوقات الذهب، وجال في الخاطر أن هذا الوهج هو الذهب بعينه، لكن من يملك القدرة على جمعه؟ فما هو إلا ذرات التراب التي صقلتها الأقدام الحافية جيئة وذهاباً.

كثيرٌ منا عدل عن جمعه إلا أننا جميعاً لم نبدل فكرتنا.

- معدنها طيّب، وأقسم بالمولى.

- بالمولى؟ جرب قسماً أقل. كيف يبيح لها هذا المعدن الطيب أن تفعل ما فعلت؟

التقطت هذه الكلمات، وكانا يتحدّثان، لم أعرها الانتباه الكامل، دخلت إلى الخاطر ضمن مجموعة الثرثرات التي تعجّ بها السوق.

● كنت أعبر إلى مرحلة المراهقة. . لحظتها اكتشفت جسمي وعرفت أن كثيراً من الأجسام، مثلها مثل النباتات في هذا الكون الفسيح، يمكن لها أن تنمو ويمكن لها أن تذبل. .

هناك. . داخل القلب أزهر عشب جميل. نبتت ريحانة حرصت أن أسقيها لتمنح الوجود رائحة الأرض.

الريحانة. . أول ما شممتها كانت تزهر فوق رأس امرأة. . سيّدي: هذا قلبي تجوّل به في كل العالم وامنحني تلك الرائحة. . سيّدي: هذا فرحي الذي زرعته انتظاراً للندى. . ولم. . . خذه وامنحني تلك الرائحة.

كانت امرأة مثمرة، وكنت فتى يابس الفرع، حين قبّلت حبيبتي فاحت في مواجهتي كل الثمار. . أحسست لحظتها بالعطش، انطمس وجهي ونبت في حبيبتي فم بادلها القبلة.

تلاشت الرائحة، فتحت عيني فإذا بها، وينهمر من فوق كتفيها نهران أسودان، وإذا تحت الشال الأسود نبتتان من الريحان قد تلاصقتا. . . يحدّان غن سطوة هذين النهرين الهادرين.

- أنت يا سيدي لا تعرف المرأة. أتعرف فماً.. جسداً.. نهراً جارفاً، جبلاً يغريك بالتحليق، بحراً يمنحك الشعر والأغنيات؟

- أعرفها يا سيدي ريحانة في القلب.

● حين أخذت مكانها وسط الوادي.. التفتت ذات اليمين وذات الشمال بعد أن اراحت جسدها المنهك. مسيرة سبع ساعات ألقت بحمولتها من الحطب.. كان ظهرها رطباً رغم أنها وضعت فوقه ما يقيه.

- متى يريحنا الله من هذا العناء؟

- من مشنقة إلى مشنقة فرج!!

انهمر شلال من الضحك تبادلته الصبايا.. كان الوادي مقفراً إلا منهن.. تعرّين.. هبطن إلى الماء.. اغتسلن.

فوق كل حمل، كان لباس المدينة مملوءاً بالقصب وما يلفت النظر. ارتدين ملابسهن. تكحّلن وجرى الوادي على غير عادته بالنساء الجميلات.

- إذا دخلت المدينة قل: باسم الله.

●

● أخذت مكانها وسط السوق. كان ذلك اللعين الذي غازلها يعبر خاطرها في تلك اللحظة.. كثيرون جاءوا يسومون الحطب لكنها رفضت بيعه. تنتظره لكنه لم يجيء، كان فتى وسيماً، ذلك الخنجر الذي يرتديه يزيّن وسطه، قوياً وكأنه شجرة طلح ترفض الموت وحليب الحياة لا يزال يجري في عروقها.

كان يلبس ثوباً أزرق اللون بلون السماء حين تخلع عن جسدها أكوام السحاب.

- يا حسرتي! لبست له ثوب الصون.

قالتها بهمس يشبه الصراخ، صديقتها ينوء كاهلها بعبء السنين تكبرها. شجرة عرعر لا يأوي لها اليمام الذي يهرب من المدينة.

قالت لها بعد أن رأت الانكسار في وجهها الصبوح:

يا عرعرة شيلي من الحزن في قلبك
خلّي القلب يثمر لشاقي مساحة ظل
يا عرعرة ما مثل ظلك ظل
تدرين يا عرعرة عني بصوت يجعل الدم
يعوّد للكف تزرع من جديد
غني بصوت يجعله....

الله يا بنتي.. نسيت أن لحظة العشق لا تعرف طريق النشيد.

فجأة انبثق الأزرق من داخل الناس.. عادت العرعرة الكبيرة إلى صمتها تراقب وهي جذلى.

فضحتها حركة يديها وهي تخفي قدمها بطرف الثوب.. تسوّي شعرها تحت شالها الجديد.

- لأول مرة أعرف أن الحجل يهبط الأسواق.. أعرف أن رؤوس الجبال سوقه ومرعاه.

- السوق الفائت كان الحمام، وهذه المرة أصبح حجلاً.. الله أعلم ماذا يكون في المرة القادمة.

●

● حين انطلقت البنادق من كل صوب.. كان الأزرق مبتهجاً.. هي تضحك من كل قلبها..

قالت لها الأم: خفّفي من هذا الضحك كفاك الله شرّه!

ابتلعت ضحكتها لتنفجر في خدّيها وعينها وأطراف الأصابع.. تدرين يا عرعرة غني بصوت يجعل الدم يعوّد للكف. تزرع من جديد.. غني بصوت يجعله.....

انداحت في حفل عرسها وكأنها تشاهده.

●

● عادتها في كل يوم ثلاثاء تزدان المدينة بالنساء القرويات إلا أنها في هذا اليوم كانت كئيبة على غير ما عهدناها.

الناس في مرهم خوف وحزن وهم يرونها.. أشهر عاشقة للأزرق في هذه المدينة..

عاشها زمناً لا يعرف إلا الفرح تحبه هو هذه السماء الجميلة التي عرفت كيف تطير فيها، كيف تحلق . . هو شعر أنه الفضاء الممتدّ الذي لا بدّ أن تطير فيه طيور أخرى .

ـ سأذبحك حتى لو كان ذلك بالحلال .

ـ الذبح . . لا أدرك مدى محبتك لي .

الأزرق يعيش بين الترقب والحذر لكنه يعرفها تحب حباً جارفاً لا يعرف الحدود .

●

سيدتي سأعترف لك

●

كان صبيحة ذلك اليوم حين جرى دمه حاراً . . لم تنبس ببنت شفة، لم ينبض بها عرق . . صامتة مثل الجبل .

ـ اعترفت بقتل زوجها الذي أحبته كلّ هذه السنين؟

●

صبيحة يوم الثلاثاء لم تزدن المدينة بالنساء سوى امرأة واحدة تتجه بخطى واثقة إلى بستان الموت .

قيل لها : تمنّيْ .

التفتت إلى العرعرة الكبيرة حيث ينفجر الدمع صامتاً وقالت بصوت دخل كل قلب ولم يفزعه : هات يا سيدة الغناء . . قليلاً من الحنّاء .

خضبت كفيها . حين طار رأسها بضربة السيف تلقفته يداها المخضبتان بالحنّاء ولم تنزل قطرة واحدة فوق الأرض . . غطرفت العرعرة الكبيرة وابتدأ العرس .

الرياض